نذر العاصفة

الدكتورة بنت الشاطىء
عائشة عبد الرحمن

لم نكن لنلقي بأنفسنا في غمار الأحداث السياسية العنيفة التي شهدها (البيت العلوي) لو أن «زينب» ظلت بعيداً عن ميدان الأحداث وبقيت في الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لاعباء الزوجية والأمومة .

أما وقد ساقتها الظروف الى صميم الدوامة الهائلة التي رأيناها تلف الدولة الاسلامية في عنف ، فنحن مضطرون الى ان نمضي فنرقب تلك النذر التي آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء .

★

وقد تمر فترة طويلة تغيب «زينب» خلالها في غمرة الأحداث هذه ، بل قد نفقد أثرها أحياناً في ضجة الدوي الراعد الذي كان يصم الآذان ، ويدير الرؤوس ، لكنا سنجدها أخيراً بعد ان تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء) .

ومن هنا يبدو عذرنا إذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظان انها لاتمس «زينب» إلا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب ، ومكانها من البيت الهاشمي ، على حين نرى في كل هذه المعارك ، مقدمات لها خطرها في توجيه حياة «زينب» وأثرها في إعدادها لدورها الرهيب .

★

قدر «لزينب» ان ترى مجرى الحوادث عن كثب : شهدت الامر ينتقل من «أبي بكر» إلى «عمر» إلى «عثمان» عام ٣٥هـ ، لتبدأ المعركة الطاحنة ، معركة الفتنة التي لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا .

سمعت أصداء صوت «عائشة ام المؤمنين» وهي تحض على الثورة ، وتطالب بدم الشهيد ، وتصيح في الناس : «إن الغوغاء من أهل الامصار وعبيد أهل المدينة ، قد سفكوا

الدم الحرام في الشهر الحرام ، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم . . » .

ثم تخرج «عائشة» على الجمل الانكد ، قائدة على جمع الخارجين على «علي امير المؤمنين» .

وما كان «علي» قاتل «عثمان» أو المحرض عليه أو الراضي به ، ولا كانت «عائشة» راضية عن «عثمان» أو ولية دمه المسفوك ، فلطالما حرضت عليه وتحدثت فيه بالنقد المثير ، والمؤرخون لم ينسوا لها انها غضبت على «عثمان» يوماً لأنه نقص عطاءها ، فتربصت به حتى رأته يخطب في الناس ، فدلت قميص رسول الله ﷺ وآله ونادت : «يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته»!

وطالما سمعت تقول : «اقتلوا نعثلا ـ أي عثمان ـ فإن نعثلاً قد كفر» .

ولا أعرف من المؤرخين من يشك في أنها ما كانت لتثور ، لو أن الأمر لم ينتقل إلى «علي بن أبي طالب» . روى «المدائني» أنه لما قتل «عثمان» كانت «عائشة» بمكة ، وبلغها النبأ وهي خارجة ، فقالت وهي لاتشك في أن «طلحة» صاحب الأمر : «بعداً لنعثل . . إيه يا صاحب الأصبع ـ وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت إصبعه دفاعاً عن الرسول في (أحد) ـ إيه أبا شبل ، إيه يا ابن عم! لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الأبل» .

وكان «طلحة» قد أخذ مفاتيح بيت المال عقب مقتل «عثمان» وأخذ نجائب كانت للخليفة القتيل في داره .

ثم لما عرفت «عائشة» بما تم من البيعة «لعلي» ، أمرت برد ركائبها إلى مكة وهي تقول :

ـ قتلوا ابن عفان مظلوماً!

فقال لها من يسمعها :

ـ ألم أسمعك تقولين : بعداً لنعثل ، وقد رأيناك من أشد الناس عليه؟

وروى «الطبري» في تاريخه أنه لما قتل «عثمان» تساقط الهراب إلى «مكة» ، و«عائشة» هناك تريد العمرة ، فأخبروها أن قد قتل «عثمان رضي الله عنه» فقالت ما معناه :

ـ هذا غب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح .

حتى اذا قضت عمرتها وخرجت ، لقيها رجل من أخوالها من بني ليث ، يقال له «عبيد ابن أبي سلمة» المعروف «بابن أم كلاب» ، فقالت متسائلة : مهيم!» .

فأصم ودمدم . .

فقالت : «ويحك ، علينا أو لنا؟» .

قال : «قتل عثمان» وسكت .

قالت : «ثم صنعوا ماذا؟» فقال :

ـ أخذها أهل «المدينة» بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز : اجتمعوا على «علي بن أبي طالب» .

فقالت :

«والله ليت ان هذه انطبقت على هذه ـ تعني السماء على الأرض ـ إن تم الأمر لصاحبك . ردوني ، ردوني» .

وارتدت إلى مكة وهي تقول كلمتها :

ـ قتل والله «عثمان» مظلوماً . والله لاطلبن بدمه .

فسألها «ابن أم كلاب» :

ـ ولم ؟ فوالله ان أول من أمال حرفه لأنت! ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر .

أجابت :

ـ انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول .

فقال لها «ابن أم كلاب» في أبيات عدة أوردها «الطبري» .

منك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وانت أمرت بقتل الامام ... وقلت لنا : أنه قد كفر!
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر

فأدارت «عائشة» راحلتها وعادت الى «مكة» لا تلوي على شيء .

وأثارتها فتنة عمياء صماء ، انتقاماً من «علي» ذاك الذي لم تسامله أبداً منذ دخلت بيت محمد ﷺ وآله ـ صبية في العقد الاول من عمرها ، ولم تنس له قط أنه زوج «فاطمة» بنت «خديجة» الودود الولود التي شغلت من قلب رجلها ـ في حياتها وبعد المات ـ مكاناً لم تستطع «عائشة» بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، ان تزحزحها عنه .

كذلك لم تغفر «عائشة» لـ«علي» ابداً موقفه من قصة الافك ، فقد كان ممن أشار على الرسول ﷺ وآله ـ بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقيل انه قال للرسول عليه الصلاة والسلام : «سل الخادم وخوفها ، وان أقامت على الجحود فاضربها» .

وقيل كثير وكثير . . أصغت له «عائشة» ووعته ، ولم تستطع ان تتناساه!

كانت «زينب» حين شبت الفتنة ، في الثلاثين من عمرها ، تعيش مع زوجها وبنيها في دار الخلافة ، وترقب عن كثب وميض تلك الثورة التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها ، وتشهد أباها امير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في جيش الشام «بصفين» ثم يفرغ منه ليلقى الخوارج في «النهروان» ، وهكذا مدى خمس سنوات طوال.

ولايذكر التاريخ هنا «لزينب» مشاركة فعلية في المعركة ، وانما انفردت «عائشة» بدور البطولة في تلك المأساة المعروفة في التاريخ باسم موقعة «الجمل» الذي ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع المعارضة الثائرة ، وكانت هي القائدة العليا للجيش : تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء ، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار مصدرة بالعبارة التالية :

«من عائشة إبنة ابي بكر ، أم المؤمنين ، حبيبة رسول اللهﷺ وآله ، الى ابنها الخالص فلان . .

«أما بعد فأن أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا ، فان لم تفعل فخذل الناس عن علي» .

ولباها من لبى ، ورد عليها من يقول :

«. . . اما بعد فأنا ابنك الخالص ان اعتزلت ورجعت الى بيتك ، وإلا فانا أول من ينابذك» .

أو يقول :

«رحم الله أم المؤمنين! أمرت أن تلزم بيتها ، وأمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه!» .

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم في سخاء ، وأقبلوا من كل حدب وصوب الى حيث وقفت «عائشة» بمكة تدعو للثورة ، فلما فصل جيشها من «مكة» كانت عدته ثلاثة آلاف ، سارت بهم حتى دخلت «البصرة» ، ووقفت تخطب في الجمع المحتشد هناك :

«. . .كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا . . فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . .

فهاج الناس وماجوا ، وصرخت (عائشة) «اسكتوا أيها الناس» .

فأسكت لها الناس ، فقالت :

«ان أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً . . . قتلوه محرماً ، ذبحاً كما يذبح الجمل . الا وان قريشاً رمت غرضها بنبالها ، وأدمت

أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً . أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يبسومونهم سوء العذاب .

«أيها الناس :

«انه ما بلغ من ذنب «عثمان» ما يستحل دمه ، مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم «ابن أبي طالب» بغير مشورة من الجماعة ، تراني أغضب لكم من شوط عثمان ولسانه ، ولا اغضب لعثمان من سيوفكم؟

«الا أن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم امير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان».

ووجدت «عائشة» في السامعين من يرد عليها :

«يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون . . . أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وأبحت حرمتك!»

وعقب شاب من بني سعد ، وجه كلامه الى (طلحة والزبير) :

ـ أما انت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ وآله ، وأما انت ياطلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى معكما أم المؤمنين ، فهل جئتما بنسائكما؟

قالا :

ـ لا .

قال :

ـ فما انا منكما في شيء . ثم أنشد :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا ـ لعمرك ـ قلة الانصاف

أمرت بجر ذيولها في بيتها ... فهوت تشق البيد بالايجاف

غرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطي والأسياف

هتكت بطلحة والزبير ستورها ... هذا المخبر عنهم والكافي

وتصدى لها «الأحنف بن قيس» يقول : «اني سائلك ومغلظ لك في المسألة ، فلا تجدي عليّ : أعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله في خروجك هذا؟» .

قالت : «لا» .

فسأل :

«أفعندك عهد من رسول الله ﷺ وآله أنك معصومة عن الخطأ؟» .

أجابت : «لا» .

قال :

صدقت ، ان الله رضي لك (المدينة) فأبيت إلا البصرة ، وأمرك بلزوم بيت نبيه ﷺ وآله ، فنزلت بيت أحد بني ضبة . ألا تخبريني يا أم المؤمنين ، أللحرب قدمت أم للصلح؟» .

أجابت وهي تكظم غيظها :

ـ بل للصلح .

فقال لها :

«والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ، ما اصطلحوا على يديك فكيف والسيوف على عواتقهم؟».

فلم تدر بم تجيب ، واكتفت بأن تقول في ألم : «لقد استغرق حلم الأحنف هجاؤه إياي ، الى الله أشكو عقوق أبنائي» .

★

وحين تلاقى الجيشان واحتدم القتال ، جعلت «القائدة» تلهب حماس عسكرها ، فهي تلتفت يمينها وتسأل : «من القوم؟» .

أجابوا : «بكر بن وائل» .

قالت : لكم يقول القائل :

وجاءوا الينا في الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل

وتنثني الى يسارها فتسأل : «من القوم عن يساري؟» فيجيبون : بنوك الأزد .

فتهتف بهم : يال غسان! حافظوا على جلادكم الذي كنا نسمع به :

★ وجالد من غسان أهل حفاظها★

وتقبل على كتيبة بين يديها فتقول : من القوم ؟

قالوا : بنو ناجية .

فتقول : بخٍ بخٍ ! سيوف أبطحية قرشية ، فجالدوا جلاداً يتفادى منه .

فكأنما أشعلت فيهم من الحماسة ناراً . .

★

وتتابع حملة اللواء خطام جملها مستبسلين ، يقول قائلهم :

يا أمنا يا زوجة النبي

يا زوجة المبارك المهدي

نحن بنو ضبة ، لا نفر

حتى نرى جماجماً تخر

فيتصدى له من معسكر «علي» من يناجزه وهو يرتجز :

يا أمنا ، أعق أم نعلم !
والأم تغدو ولداً وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلي منه يد ومعصم ؟!

ويتقدم آخر ، فيمسك خطام الجمل ويمر على جثة واحد من جيش «علي» قائلاً :

أسامع أنت مطيع لعلي
من قبل أن تذوق حد المشرفي
وخاذل في الحق أزواج النبي ؟

ثم يخلص إلى «عائشة» وهو يهتف :

يا أمنا «يا عيش» لن تراعي
والأزد فيها كرم الطباع

فيلقاه من أصحاب «علي» من يجندله مرتجزاً :

جردت سيفي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهد

حتى عقر «الجمل» وكادت «عائشة» تتلف لولا أن أنقذها «علي»، ونادى مناديه : «ألا يجهز على جريح ، ولا يتبع مول ، ولا يطعن في وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن» .

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يحدق في جثث القتلى وقد بلغوا نحو عشرة آلاف : كلهم عرب ، وكلهم مسلمون ، وفيهم صحابة الرسول ﷺ وآله ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية :

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث ، ورفع يديه إلى السماء هاتفاً في ضراعة وابتهال :

إليك أشكو عجري وبجري
ومعشراً أغشوا على بصري
قتلت منهم مضري بمضري

شفيت نفسي وقتلت معشري
ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة .

★

وأعيدت «عائشة» إلى «المدينة» بعد أن انفردت ببطولة المعركة ، فما تركت لامرأة سواها مكاناً إلى جانبها ، اللهم إلا أن تكون كلمة عابرة أو مشهداً ثانوياً ليس بذي بال :

ودت «أم سلمة» أن تخرج لتنصر «علياً» ، لكنها كرهت أن تبتلى ـ وهي أم المؤمنين ـ بمثل ذاك الخروج ، فجاءت «علياً» وقدمت إليه ابنها «عمر» قائلة :

«يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصي الله عز وجل ، وأنك لا تقبله مني ، لخرجت معك . وهذا ابني عمر ـ والله لهو أعز عليّ من نفسي ـ يخرج معك فيشهد مشاهدك» .

وأتت «عائشة» فقالت لها :

«أي خروج هذا الذي تخرجين ؟ . . . الله من وراء هذه الأمة !! لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي : ادخلي الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ !» .

لكن «عائشة» لم ترجع . . .

بل مضت في طريقها ، وتخلفت أمهات المؤمنين عنها ـ وكن قد خرجن معها إلى مكة ـ مؤثرات أن يرجعن إلى «المدينة» ، إلا «حفصة بنت عمر» فإنها قالت : «رأيي لرأي عائشة تبع» .

وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة ، فحال أخوها «عبد الله بن عمر» دون ذاك ، ولم تجد «حفصة» بداً من الاعتذار والقعود !

★

وعلى هذا النحو ، استأثرت «عائشة» ببطولة الموقعة وقيادتها ، وتوارت «زينب» فلم نلمح لها أثراً ولم نسمع لها صوتاً . ذلك أن القدر كان يدخرها لبطولة من نوع آخر ، ويحتفظ بها وراء الستار حتى يحين أوان ظهورها في «كربلاء» بعد ربع قرن من الزمان .

لكنها مع ذلك كانت هناك في دار الخلافة ، حيث مركز الأحداث ، وقطب رحاها ! كانت هناك ـ كما قلنا ـ ترمق أباها أمير المؤمنين في حب وقلق ، وهو يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة «الجمل» ليلقى «معاوية» في «صفين» ثم يفرغ منه ليلقى «الخوارج» في «النهروان» ، وهكذا مدى خمس سنوات ، لم يهدأ فيها يوماً ، حتى كانت تلك الليلة المشؤومة ، ليلة الجمعة لتسع عشرة خلون من رمضان عام ٤٠هـ ، وقد خرج الإمام في الفجر يصلي بالناس في المسجد الأعظم بالكوفة ، و«زينب» في الدار ما تدري إلا وضجة تعلو آتية من ناحية المسجد ، مبددة

أصداء الهتاف الذي جلجل منذ لحظات من مآذن الكوفة : حي على الصلاة ، حي على الفلاح ! الله أكبر ، الله أكبر !.

وأمسكت «زينب» قلبها في ذعر مبهم ، وأصغت في وجوم وقلق إلى الضجة وهي تقترب من دار الخلافة شيئاً فشيئاً ، حتى إذا بلغت ساحة الدار ميزت «زينب» صيحات مروعة ، تعلن ملء الفضاء : أن قد قتل أمير المؤمنين !.

وهنا جمعت «زينب» كيانها الموشك على التداعي ، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولاً على الأعناق ، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة ، من سيف «ابن ملجم» .

وأكبت عليه تقبله ، وتغسل جرحه بدموعها وأختها «أم كلثوم» إلى جانبها تصيح بالقاتل وقد جيء به مكتوف اليدين :

ـ أي عدو الله ، لا بأس على أبي ، والله مجزيك .

وما أحسب «زينب» إلا سمعت من العواد قصة «ابن ملجم» هذا : سمعت أنه ثالث ثلاثة من الخوارج ، ائتمروا «بعلي ومعاوية وعمرو» ثأراً لإخوانهم قتلى «النهروان» وحسماً لذلك الداء الذي استشرى منذ مقتل «عثمان» .

وقد خرج «ابن ملجم» من «مكة» وسار حتى قدم «الكوفة» فزار رجلاً من أصحابه من «تيم الرباب» فصادف عنده «قطام بنت الأخضر» ـ وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر ـ وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها . . فلما رآها «ابن ملجم» أخذت قلبه ، وأراد أن يخطبها فسألته :

ـ ما الذي تسمي لي من الصداق ؟

أجاب :

ـ احتكمي ما بدا لك .

فقالت في عزم وجد .

ـ أنا محتكمة عليك ثلاثة آلاف درهم ، وعبداً ، وقينة ، وقتل «علي بن أبي طالب» !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

ـ لك جميع ما سألت ، فأما قتلي «علياً» فأنى لي بذاك ؟

قالت على الفور :

ـ تلتمس غرته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي . . .

فنظر إليها متأملاً ثم قال :

ـ أما والله ما أقدمني هذا المصير ـ وقد كنت هارباً منه لا آمن مع أهله ـ إلا ما سألتني من قتل «علي» فلك ما سألت !

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياماً ثم أتاها مع صاحبيه في الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم . . . فكان ما كان :

فلم أر مهراً ساقة ذو سماحة كمهر «قطام»، من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينة وضرب «علي» بالحسام المصمم
ولا مهر أغلى من «علي» وإن علا ولا فتك إلا دون فتك «ابن ملجم

وتكاثر العواد يقفون بباب أمير المؤمنين جازعين داعين ، فإذا لم يؤذن لهم في الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الإمام :

ـ قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فوالله لقد كان الله في صدرك عظيماً !!

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من «أثير بن عمرو بن هانىء» وكان متطبباً يعالج الجراحات ، أصابه «خالد بن الوليد» مع أربعين غلاماً في «عين التمر» فسباهم .

ونظر «أثير» إلى جرح الأمير ، فدعا برثة حارة وانتزع عرقاً منها فأدخله في الجرح ثم استخرجه ، فإذا عليه بياض الدماغ ، فقال له يائساً :

ـ يا أمير المؤمنين ، أعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك .

فدعا الإمام ولديه «الحسن والحسين»، وتهيأ لكتابة وصيته . . .

ومن تلك اللحظة ، لم تدع «زينب» فراش أبيها . . .

كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل .

وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين !

ضرب في فجر الجمعة ، فمكث يومين اثنين ، وتوفي ليلة الأحد ، لإحدى وعشرين مضت من رمضان عام ٤٠هـ ، على أرجح الأقوال .

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية «معاوية» .

وترك العقيلة «زينب» لتشهد آل البيت وهم يصلون النار التي أشعلتها فتنة الثار «لعثمان» .

★

أما «عائشة» فحين أتاها النعي ، تمثلت بقول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم سألت :

ـ من قتله ؟

فقيل لها : رجل من مراد .

فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

وسمعتها «زينب بنت أم سلمة» فسألتها منكرة :

ـ ألعلي تقولين هذا ؟

فأجابت «عائشة» :

ـ إني أنسى ، فإذا نسيت فذكروني . ثم تمثلت :

ما زال إهداء القصائد بيننا باسم الصديق ، وكثرة الألقاب

حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

وفي رواية أنه : لما جاء «عائشة» قتل «علي» عليه السلام ، سجدت !

قالوا : وكان الذي جاءها بنعيه ، «سفيان بن أبي أمية» .

أجل ، قالت «عائشة» حين نعي «علي» :

★ فألقت عصاها واستقر بها النوى ★

ولكنها لم تلق عصاها ولم تستقر بها النوى ، فإن مقتل «علي» لم يكن سوى حلقة من سلسلة الفواجع التي ألمت بآل البيت ، ودفعت بهم طعاماً لنار الفتنة العمياء التي شبتها «عائشة» وتولت كبرها .

★

ثكلت «زينب» أباها .

وجاء دور شقيقها «الحسن» !

بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

«. . . لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل . ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقدكان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله!» .

ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه !

وانتهى هذا الدور ـ دور الحسن ـ بعد عشر سنوات .

حاول في أولها أن يقف لخصمه الداهية «معاوية» ، فخذله أهل «الكوفة» الذي قال فيهم

«عدي بن حاتم» : «. . . ألسنتهم كالمخارق في الدعة ، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب !».

وإذ ذاك تنازل عن الخلافة «لمعاوية» بعد أن شد بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام بغلته وطعنته في فخذه ! فازداد لهم بغضاً ومنهم رعباً ، وولى عنهم وهو يقول : «يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي» .

ومرّضت «زينب» أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها إلى حين ، وظنت أن نزول «الحسن» عن حقه منجية من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف السفاحين !

ولكن «معاوية» كان يريد الخلافة ملكاً أموياً ، ولن يستطيع أن يأخذ البيعة لابنه «يزيد» والحسن بن علي حي يتنفس !

ولم يكن عهده «للحسن» أن يلي الأمر من بعده ، هو الذي يشغله ويهمه ، فما لمثل «معاوية» عهد ، وإنما شغله وأهمه أن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلاً من «الحسن ابن علي» ، سبط الرسول .

وإن «معاوية» ليذكر تماماً ، يوم خطب في الناس ـ بعد أن تنازل له الحسن ـ فذكر «علياً» فنال منه ، ونال من «الحسن»، فقام «الحسين» ليرد عليه فأخذ «الحسن» بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

«أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدي رسول الله ﷺ ، وجدك حرب ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً» .

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين . . .

وارتفع صوت يقول : ونحن نقول : آمين ؟

وردد آخرون : ونحن أيضاً نقول : آمين ؟

أيمكن أن يحقق «معاوية» حلمه ، و«الحسن» ملء قلوب هؤلاء الناس وإن خذلته سيوفهم رهبة من «معاوية»؟!

قالوا : وانصرف «الحسن» بعد تنازله عن الخلافة إلى «المدينة» فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد «معاوية» البيعة لابنه «يزيد» فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر «الحسن بن علي» فدس له سماً .

وكان الذي تولى ذلك لمعاوية من «الحسن» ، زوجه «جعدة بنت الأشعث بن قيس» .

أرسل إليها «معاوية»: «إني مزوجك بيزيد ابني ، على أن تسمي زوجك الحسن بن علي» . ووعدها بمائة ألف درهم ، فقبلت ، وسمت «الحسن» ، فدفع لها «معاوية» المال ولم يزوجها من «يزيد» معتذراً إليها بأن حياته غالية عليه ! فخلف عليها رجل من «آل طلحة» فأولدها ، فكان إذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كلام ، عيروهم وقالوا : يا بني مسمة الأزواج . . .

★

وشيعت «زينب» أخاها ، ثم آبت إلى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها إلى جوار أمها «الزهراء» بالبقيع .

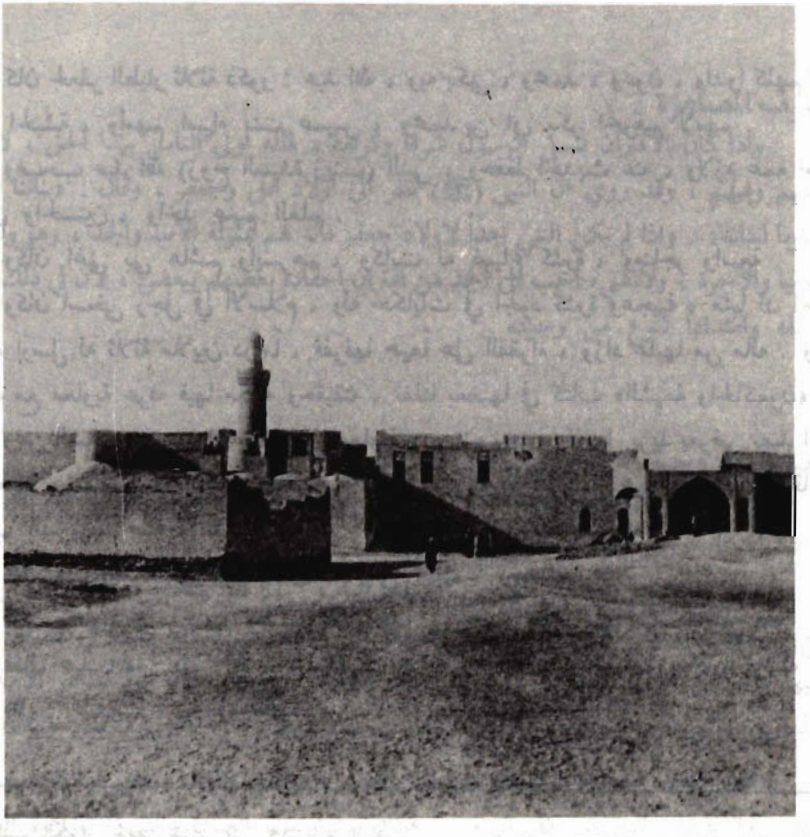

بلاد بها نيطت علىّ تمائمي وأول ارض مس جسمي ترابها